

سردية المحنة في رواية (أعشاب القلب ليست سوداء) لنعيمة معمري

The Narration of the Ordeal in the Novel " Aachab Elkalb Layst
Sawdae (The Weeds of the Heart Are Not Black)" by Naima Maamari

* كيسة ملاح

Kissa Mellah

جامعة محمد بوقرة، بومرداس (الجزائر)

Univercity M'hamed Bouguera, Boumerdes (Algeria)

k.mellah@univ-boumerdes.dz

تاريخ النشر: 2025/03/02	تاريخ القبول: 2024/12/02	تاريخ الإرسال: 2024/09/15
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

يتم هذا البحث بدراسة رواية "أعشاب القلب ليست سوداء" للكاتبة الجزائرية نعيمة معمري، وهي رواية تركز على تيمة العنف، المحنة، والاغتراب التي عرفتها الجزائر خلال عشرية التسعينات، فكان الاهتمام بالبحث في خصوصية رواية المحنة الجزائرية، وكذلك مظهرات المحنة من خلال البناء السردى لرواية "أعشاب القلب ليست سوداء".

فكانت إشكالية البحث تتمثل في كيف عالجت رواية "أعشاب القلب ليست سوداء" المحنة الجزائرية سرديا.

لذلك سنركز في هذا البحث على مبحثين، يتعلق الأول برواية المحنة الجزائرية، أما المبحث الثاني سنخصصه لمظهرات المحنة الجزائرية من خلال البناء السردى للشخصيات، الزمان، المكان، الحدث، اللغة، التصوير المشهدي لعنف، متوسلين في الخلفية النظرية بالمنهج البنوي السردى.

نهدف من خلال هذا البحث إلى إثراء البحوث المتعلقة برواية المحنة الجزائرية، وكيف انتقلت الرواية الجزائرية المهمة بالعشرية السوداء من الأدب الاستعجالي التسجيلي للأحداث، كفعل مقاومة إلى رواية محنة تسترجع الأحداث تخييليا كفعل ذاكرة. من نتائج البحث أن شخصيات الرواية شخصيات عانت من ويلات العشرية السوداء وتأثرت بها، كما كانت أمكنة الرواية مظهرا سرديا للمحنة التي برزت في الزمن الروائي المحدد بأحداث أكتوبر 1988 إلى ما بعد استفتاء الوئام المدني وبداية نهاية الأحداث المأساوية.

* كيسة ملاح: k.mellah@univ-boumerdes.dz

الكلمات المفتاحية: رواية المحنة، السردية، الرؤية الفجائية، الرواية الجزائرية.

Abstract :

This research is concerned with studying the novel "Herbs of the Heart is not Black" by Algerian writer Naima Maamari, a novel that focuses on the theme of violence, ordeal, and the alienation that Algeria has known during the nineties, so the interest in researching the privacy of the Algerian ordeal novel, as well as the manifestations of the ordeal through the narrative construction of a novel. "Aachab elkalbe laysate sawdaa (Heart herbs are not black).'

The main topic of this research was how the novel "Herbs of Heart is not Black", the Algerian ordeal narrated.

Therefore, we will focus on this research on two topics, the first relates to the novel of the Algerian ordeal, while the second topic will dedicate it to the appearances of the Algerian ordeal through the narrative construction of characters, time, place, event, language, scenic photography of violence, begging in the theoretical background with the narrative structural approach.

Through this research, we aim to enrich the research related to the novel of the Algerian ordeal, and how the Algerian novel interested in the black decade has moved from the urgent literature of the registration of events, as a resistance act to the narration of an ordeal that recalls events imagined as a memory act. One of the results of the research is that the characters of the novel suffered from the ravages of the black decade and were influenced by them, as were places of the novel were also a narrative appearance of the plight that emerged in the narrative time specified in the events of October 1988 until after the referendum of civil harmony and the beginning of the end of the tragic events.



مقدمة :

تكتسب رواية المحنة الجزائرية سمعة الظاهرة الأدبية التي تجذب اهتمام الدارسين والنقاد، للكشف عن خصوصيتها، من خلال البحث في موضوعاتها، وبناءها السردي واللغوي، وبعد نهاية الأحداث المأساوية وعودة الأمن والسلم للجزائر، ظهرت العديد الأعمال الروائية التي كان موضوعها الرئيسي المحنة الجزائرية، ومن هذه الأعمال رواية "أعشاب القلب ليست سوداء" * للكاتبة الجزائرية "نعيمة معمرى" التي ظهرت سنة 2010 عن دار فيسيرا بالجزائر، وفيها تطرح عدة قضايا ترتبط برواية المحنة، فكانت المحنة والمأساة الوطنية هي القضية المركزية، إضافة إلى قضايا أخرى هامشية مثل القضية الفلسطينية، صورة الأنا/ الآخر، الاغتراب، العالم ما بعد 11 سبتمبر، حرية الرأي، قضية المرأة ودورها في المجتمع، علاقات الحب والصداقة، دور الفن والمسرح في المجتمع.

أولا. رواية المحنة الجزائرية:

أ- مفهوم رواية المحنة:

يطلق مصطلح "رواية المحنة" على الرواية الجزائرية الجديدة التي اتخذت من موضوع المحنة وما عاشته الجزائر من أزمة خلال العشرية السوداء وخاصة فترة التسعينيات، موضوعا مركزيا لها، وقد اتخذت من المأساة الجزائرية تيمة محيطة، ومن الأحداث والحرب الأهلية غير المعلنة بؤرة للسرد تتوالد منها أسئلة النص، وعلى ضوءها تتحدد علاقة الذات/ الآخر، الحياة/ الموت، الذاكرة/ النسيان، الوطن/ المنفى، وغيرها من الثنائيات الضدية التي ارتكزت عليها هذه الرواية.

والملاحظ أنه تم الاتفاق على هذا المصطلح بعد تداول مصطلحات كثيرة وعدة تسميات منها: الأدب الاستعجالي وهي تسمية ظهرت سنوات التسعينات مرافقة لروايات تلك الفترة، ومن التسميات أيضا رواية الأزمة، رواية العشرية السوداء، رواية ثورة العنف، محكيات الإرهاب،... وغيرها والاستقرار على استخدام مصطلح "رواية المحنة" نظراً للمحمول الدلالي لمصطلح المحنة، فالمحنة هي ظاهرة إنسانية لها مبررات حدوث وجو تطور، ونتائج تقود إلى حلقة جدلية جديدة، ويمكن نقل هذه الكلمة "المحنة" إلى تعبير آخر هو "جو التحدي"، فرواية المحنة هي الوجه الآخر لمحنة الكتابة، بما هي مرادف "لمحنة العقل والروح والثقافة والوطن، تنشح بظلال رومانسية تتقاطع مع محنة الإنسان الوجودية، وأسئلته الخالدة المعلقة" ¹ وبالمقارنة مع مصطلح "الأدب الاستعجالي" الذي يحيل على مسارعة الكتابة إلى التقاط صور الحرائق المشتعلة في الوطن، فكان مصطلح "الأدب الاستعجالي" كما يرى "رشيد مختاري" ² أكثر التفاتا إلى المقاربة المضمونية لمجمل الأعمال الصادرة وقتذاك، كما يرى "مخلوف عامر" أن توجه كتاب هذه الفترة نحو التركيز على المضمون،

يبرره طبيعة الإنتاج الأدبي، إذ مهما اجتهد الروائي في اصطناع تقنيات جبالية مستحدثة وخلق بنيات فنية جديدة، إلا أن المضمون هو الذي يكشف عن وجهه قبل أي مظهر من مظاهر الشكل".³
فأصبحت الكتابة في تلك الفترة العصبية، على حد قول "فيصل دزاج" "المجال الآمن الأكثر مواءمة للتعبير عن المعيش، تصرّح بما لا يقول به عالم السياسة وتذيع ما لم يقل به علم الاجتماع وتنشر ما يخفيه عالم الاقتصاد ويحجبه"⁴.

ب خصوصية رواية المحنة:

من الناحية الفنية يمكن تقسيم رواية المحنة إلى مرحلتين تاريخيتين:
المرحلة الأولى: وهي النصوص التي ظهرت خلال فترة العشرية السوداء حتى سنة 2005، وهي السنة التي تم فيها الاستفتاء على ميثاق السلم والمصالحة، وعودة الأمن والسلم للجزائر.
كانت الروايات التي صدرت خلال هذه الفترة تتميز بكونها روايات مقاومة ومواجهة ومغامرة حياة، فقد كانت الكتابة خلال هذه الفترة فعل حياة ومقاومة، بعد اغتيال كثير من الكتاب والمثقفين والمفكرين والفنانين، وبعد أن اختار كثير من المبدعين المنفى الاختياري بعيدا عن الموت الذي يهددهم كل لحظة، لذلك فقد تميّزت هذه المرحلة بالعدد القليل للروايات المنشورة، وموضوعاتها المباشرة المرتبطة بالواقع الأليم الذي كانت تعيشه الجزائر.
من أبرز روائي هذه المرحلة: واسيني الأعرج في سداسية المحنة، ابراهيم سعدي في رواية "فتاوى زمن الموت"، بشير مفتي في رواية "المراسيم والجنائز"، حميد عبد القادر في رواية "الانزلاق"، مرزاق بقطاش في رواية "دم الغزال"، سفيان زدادقة في رواية "سادة المصير"، مراد بوكزاززة في رواية "شرفات الكلام".....
وقد تميّزت روايات هذه الفترة براهنية تيمات وموضوعاتها، وارتباطها بالأسباب وما أدت إليه من مأساة وطنية، الأمر الذي جعل هذه الرواية في مواجهة الواقع المعيش وأسئلة الهوية والايديولوجيا، ففي كل رواية نقرأ آلام الوطن الجريح وتشظي الذات وخوفها وآلامها.
وبقدر ما كان الراهن دافعا للكتابة كفعل مقاومة وكفعل حياة، كان منعطفا مهما في حياة الكثير من المثقفين والكتاب في بعدهم الذاتي كأفراد يحملون قلقا وجوديا وضعفا أمام المحن والأزمات، تظهر في توقف كثير من الكتاب عن الكتابة والذين استمروا وظيفوا السيرة الذاتية في عمل بين الذاتي والتخييلي، مما أدى -حسب بوشوشة بن جمعة- إلى إرباك "العلاقة بين الميثاقين: الروائي والسير الذاتي، وتكشف عن هذا التعالق عديد العلامات المبتوثة في ثنايا النص، والدالة على توظيف الكاتب لعدد من مكونات سيرته الذاتية في نسيج متنه الحكائي"⁵ مثلما نجده في روايات واسيني الأعرج، ابراهيم سعدي، مرزاق بقطاش وغيرهم.

إن الرواية الجزائرية التي كُتبت في قلب المأساة الوطنية حاولت أن تثير الجدل حول التاريخ والهوية، وأن تثير الأسئلة حول مفهوم الدولة ونظام الحكم، والنظام السياسي والجهاد، وهي الموضوعات التي طغت على رواية المحنة.

ومن أبرز روايات هذه المرحلة: سداسية المحنة لواسيني الأعرج (ضمير الغائب، أحلام مريم الوديعة، سيدة المقام، حارسة الظلال، ذاكرة الماء، شرفات بحر الشمال)، ثلاثية أحلام مستغانمي (ذاكرة الجسد، فوضى الحواس، عابر سرير) وخاصة رواية فوضى الحواس، روايات إبراهيم سعدي فتاوى زمن الموت وبوح الرجل القادم من الظلام، الجيلالي خلاص: عواصف جزيرة الطيور، مرزاق بقطاش: دم الغزال، حميد عبد القادر: الانزلاق، توابل المدينة، سعيد مقدم: البرانويا، فضيلة الفاروق: مزاج مراهقة، زهرة ديك: بين فكي وطن، سعيدة هواره: الشمس في علبة، ياسمينه صالح: بحر الصمت، أمينة العياشي في روايته متاهات ليل الفتنة، محمد ساري: الورم، بشير مفتي: المراسيم والجنائز..... إلى غيرها من العناوين والتي لم تكن كثيرة خلال هذه الفترة بسبب الأوضاع التي عرفتها الجزائر.

المرحلة الثانية:

وهي الروايات التي ظهرت بعد 2005 والتي حققت ما يمكن تسميته مرحلة التراكم الروائي في مسار تطور الرواية الجزائرية، ويعتبر التوجه لكتابة رواية المحنة في هذه المرحلة خيارا تخييليا استراتيجيا لكتابة فترة حرجية من تاريخ الجزائر، وقد شكلت فترة العشرية السوداء تيمة من بين تيمات الرواية.

من أبرز روائيين هذه المرحلة: محمد ساري في روايات الغيث، القلاع المتآكلة، حرب القبور، بشير مفتي: أشباح المدينة المقتولة، لعبة السعادة، غرفة الذكريات، اختلاط المواسم، سعيد خطيبي في رواية "حطب سرايفو"، الحبيب السايح رهبان تبحرين، كمال قرور في روايته "كولونيل الزيرير"، سمير قسسي في روايات "حب في خريف مائل"، في عشق امرأة عاقر، سلام ترولار، الحالم، المحافة كما لم يروها أحد. واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ليليات رمادة.....

تميّزت هذه المرحلة بتوجه الروائيين نحو التخيل أكثر، وتسمية ما حدث بالحرب الأهلية غير المعلنة، كما فعل واسيني الأعرج في روايته "مملكة الفراشة". وإذا كانت روايات المرحلة الأولى روايات مقاومة وفعل حياة، فإن روايات المرحلة الثانية هي روايات ذاكرة وروايات وطن كان على حافة الهاوية.

تنتهي رواية "أعشاب القلب ليست سوداء" التي نخصصها بالدراسة إلى المرحلة الثانية من روايات المحنة.

ثانيا. التظاهرات السردية للمحنة في رواية "أعشاب القلب ليست سوداء"

أ- على مستوى العنوان:

يواجهنا في الصفحة الأولى للغلاف عنوان الرواية "أعشاب القلب ليست سوداء"، فهل تنب في القلب أعشاب؟ ما علاقة العشب بالقلب؟ ولماذا ليست سوداء؟ يحيلنا هذا العنوان إلى النص لفهمه أكثر واكتشاف دلالاته ومعانيه.

يرتكز النص على شخصية الهادي الذي عايش أحداث العشرية السوداء، وهو رجل آمن، وبسبب الأحداث يقرر الهجرة إلى لندن، والاعتزب عن الوطن، ولكنه لم يستطع التأقلم هناك، وبقي يعيش تحت هواجس الأحداث ومرارة الذكريات وبؤس الواقع، ليقرر بعد ما حصل له بسبب أحداث 11 سبتمبر 2001، العودة إلى أرض الوطن، متساعجا مع الوطن، بعد أن كان في بداية النص ناقما غاضبا عليه. كما تنتهي الرواية بقاء نواره، نواره التي كانت حبيبته وعشيقته، والتي تركها في مصحة عقلية ليتزوجها طبيبها المعالج وتنجب منه ابنا عبد النور، على اسم أخيها عبد النور الذي قُتل في اشتباك مع قوات الأمن كان من ضمنها الهادي.

فيمكن القول إن العنوان يحيل إلى أن قلب الهادي لم يعد حاقدا، ولكنه أصبح أكثر تسامحا وتقبلا للآخر، فالعنوان تعبير عن القلب الأبيض، الذي يعني القلب الطيب، المتسامح، الحنون، القلب الذي يحافظ على الحب أو الذي يستعيده مجددا، فهذا القلب رغم كل ما مر به لم يفقد نقاءه وصفاءه، لذلك لم تم به أعشاب ولم تتحول إلى سوداء، ويمكن أن نغالي في التأويل قليلا ونقول إن هذا العنوان يحيل إلى ميثاق السلم والمصالحة الوطنية الذي قام على فعل التسامح وعفا الله عما سلف من أجل الوصول إلى تحقيق الأمن والسلم في الوطن.

ب- على مستوى الشخصيات:

تتمثل شخصيات الرواية في:

الشخصيات الرئيسية		الشخصيات الثانوية	
الهادي	السارد	نواره	حبيبة الهادي السابقة
		زينو	فنان مسرحي / صديق الهادي
		حميدو	صحفي / صديق الهادي
		عبد النور	شقيق نواره / عضو الجماعة الإرهابية
		لورا	صديقة الهادي الانجليزية
		العم سي امحمد	مدير المطعم المملوك للثري الفلسطيني أبو شادي بلندن
		خالتي فطيمة التونسية	تقوم على خدمة الهادي وتنظيف شقته بلندن

	الأم	/
	الأب	/

الجدول رقم 01: شخصيات الرواية

بالإضافة إلى شخصيات ثانوية أخرى مثل شخصية الشانبيط حارس البستان وكذلك حارس المقبرة، ونلاحظ أن الشخصيات الرئيسية في الرواية تمثلت في شخصية الهادي الذي تولى سرد الأحداث وتقديم باقي الشخصيات، من خلال علاقته معها وما يعرفه عنها.

يعتبر مصير الشخصيات مظهرًا فنيًا يستحق الوقوف عنده كمتنوع لرواية المحنة في الرواية، الشخصية الرئيسية في الرواية، والتي تحملت سرد الأحداث، شخصية الهادي يوضح مصيره منذ بداية النص، فهو الرجل الجثة، الرجل الجيفة، العقيم، العاجز، الذي لا يستحق الحياة؟⁶، ويتساءل القارئ لماذا يصف الهادي مصيره بهذا الشكل المأساوي؟ لماذا يصف نفسه بمثل هذه الصفات الكريمة؟ الجثة، الجيفة، العقيم، العاجز، يفاجئ السارد القارئ بهذه الصفات وهذا المصير، ما يجعل القارئ يواصل قراءة الرواية بحثًا عن مبررات لهذه الصفات.

ركزت الرواية على مصائر الشخصيات بين الموت اغتيالًا (زينو، حميدو)، والقتل بسبب الانضمام للجماعات المسلحة (عبد النور)، الجنون والانهيار العقلي (نؤارة)، الاغتراب والمنفى (الهادي). من شخصيات الرواية التي حظيت بحضور في السرد، شخصية زينو الفنان المسرحي الذي اغتالته الجماعات المسلحة، وهو يحيلنا إلى الفنان المسرحي عز الدين مجوي، فحتى في تشكيّل الاسم هناك تشابه بين زين الدين مجيد وعز الدين مجوي، وكذلك تسمية قاعة الحفلات باسمه، كنوع من تخليد لاسمه، "تم تدشين قاعة الحفلات باسم "زين الدين مجيد"، وانفجر بتهنئة مجنونة "آه أمس جعلوا من حميدو المدير الشرفي للجريدة، مسكين لم يخلصه حتى الموت من عنف هذه الحياة، فقد ظل يدير من قبره مآسي الوطن وعفونة هذه الحياة، واليوم ها هم يدشنون قاعة الحفلات باسم زينو، فليحيا الفرح في وطن اللافرح، يا الله ... تحت شعار كي لا ننسى تحول كل الذين نحبه إلى أساء وأمكنة(....) أي فليتأكد الجميع بأن من نحبه مكانهم القلب... القلب"⁷

فشخصية زينو المسرحية تعبير أو إعادة احياء لشخصية عز الدين مجوي الذي اغتيل يوم 13 فيفري 1995، في حين تحيلنا شخصية حميدو للصحفي "عمر أورتيلان" رئيس تحرير جريدة الخبر والذي اغتيل يوم 03 أكتوبر 1995، وبعد اغتياله أصبح رئيسًا شرفيًا لجريدة الخبر التي أنتجت جائزة باسمه. ومن المصائر المأساوية للشخصيات مصير الهادي الذي تختزل حكايته المصير الفجائي للإنسان الجزائري خلال فترة التسعينات، فالهادي اختار أن يكون رجلاً أمن، ولكن الفترة التي جاء فيها والتي

بدأت بأحداث أكتوبر 1988، ثم انزلاق الجزائر في هاوية العنف والدم بداية من سنة 1992، لم تكن فترة أمنية سهلة، فبعد حادثة الاشتباك مع الجماعة المسلحة، حيث كان من بين المقتولين من الجماعة المسلحة عبد النور شقيق نورة، وبعد زواج نورة من طبيبها المعالج يقرر الاستقالة من صفوف الأمن والهجرة إلى لندن عاصمة الضباب، ولكنه في الفترة التي عاشها في لندن، ورغم عثوره على عمل بمطعم أي شادي الثري الفلسطيني، ورغم علاقته الغرامية مع امرأة انجليزية اسمها لورا، ورغم الحظ الذي ابتسم له في مغادرة الوطن في أحلك ظروفه، إلا أنه لم يعرف هناك العيش بل كانت تهشه الذكريات والحنين إلى الوطن والشوق إلى العائلة والأصدقاء، وكانت أحداث 11 سبتمبر 2001 وما تبعها من تحقيقات أمنية مع العرب في مختلف دول الغرب، ومنها لندن التي أُلقت القبض على الهادي وأصدقائه العرب ولم يخرج من السجن إلا بكفالة دفعها لورا، ليقرر بعدها العودة إلى الوطن الذي بدأ يتعافى من أزمته بفضل قانون الوئام المدني ثم ميثاق المصالحة الوطنية. وهو في غربته يعيش غربة واعترابا وعلاقة متوترة مع أهل البلد الذين يرون في الغرباء "نباتات مضرّة بصحة هؤلاء القوم" ويمكن القول إن الهادي يختصر حياته في الغربة بهذه العبارة "هل ذنبي أني ولدت في وطن أحبته، ودافعت عنه، ولأجله أراني اليوم أستحم في هذا العفن، في هذه القذارة؟ حياتي معطلة عن الاستجابة لأي شيء ولأي أحد ما عدا الحنين"⁸ وقوله "لكني بركان من السخط.. وعدم الرضا"⁹ ويشعر بالعجز والحنين بالذل، بالرخص... الألم بالوطن المذبوح، وتتأرجح ذاكرته بين الحنين والشوق والعنف القاهر.

وفي الجانب المتعلق بعلاقته بلورا، تذكرنا هذه العلاقة المتوترة وغير المستقرة والمبنية على علاقة سادومازوشية، علاقة يحكمها التوتر والارتباك والصدامية، تذكرنا ببطل رواية الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" التي تحضر كنص غائب مضمّر في الرواية. لورا الاسم المنحوت من اسم نورا، الذي يعيده إلى اسم نورة، فيبدو الهادي مسكونا بنورة المرأة التي أحب، فكانت كل أنثى يلتقي بها تعيده إلى نورة. نورة الشخصية الأنثوية المركزية في الرواية، فنانة مسرحية، امرأة رقيقة المشاعر والأحاسيس، فاتنة، كانت حبيبة الهادي وعشيقته، لكنها انهارت عقليا ودخلت مصحة عقلية بعد مقتل شقيقها عبد النور، وهي لا تستحق كل هذه القسوة، هذا الألم وهذا المصير، وبعد دخولها المصحة وزيارات الهادي المتكررة لها ثم مع حديثه مع الطبيب المعالج ووصفه لنورة بكل ذلك البهاء، حتى أننا نشعر أن نورة ليست امرأة عادية ولكنها من طبيعة مختلفة، وهذا ما أدى إلى تعلق الطبيب بها، ثم بعد شفاءها يرتبط بها "لم أدر يوما أني كنت أجي على نفسي كرجل وأني كنت أحفر مقترق طرق رهيب بيني وبين نورة"¹⁰

تحيلنا شخصية نؤارة الى شخصية نؤارة لهيلة من ديوان ربايعات نؤارة لهيلة وديوان راقصة المعبد لزيبب الأعوج، فهل هناك علاقة تناصية بينها؟ نؤارة لهيلة النموذج الشعري الشعبي لامرأة مجروحة في بلاد أرهقتها الحروب والأزمات.

وهل كان يقصد النص بنؤارة امرأة عاشقة للحياة، للحرية، للفن انهارت مع الأحداث المأساوية لتستعيد عافيتها وتنجب ابنها عبد النور، وهو اسم يدل على النور المنبثق من الظلام.

ألا تحيل نؤارة بكل الصفات التي أوردها الهادي إلى الوطن، إلى الجزائر التي انزلت وسقطت في هاوية العنف لتستعيد عافيتها وتمنح النور والسلام والأمان.

فهل هذه المصائر نتيجة لفتح حرية الرأي، "أظن أن مسألة الرأي في بلادي هي التي بعثت بأغلبتنا إلى المقبرة، بأقليتنا إلى الغربة والمصححات العقلية"¹¹، وفي هذه العبارة تحديد للمصير الفجائي للشخصيات.

ج- على مستوى بنية المكان / الزمان في الرواية

تبدأ أحداث الرواية بالمكان (المطار) وبالزمن المستعجل، فالمطار يمثل اللامكان، هو بين/ بين، بين وطن يشيح بوجهه وبين حجم الغربة المنتظر، لذلك كانت الأماكن في هذه الرواية توحى بالشعور بالمأساة، "الشعور بالأسى تجاه شيء عزيز، والشيء العزيز في الرواية ليس إلا الوطن الذي تناهت به الرغبات والشهوات في التملك والتسلط والاحتواء"¹²

تبدأ الرواية بلحظة مغادرة الوطن، وتنتهي بالعودة إليه، تبدأ بمكان هو المطار، مكان يمثل الرحيل والمغادرة إلى مكان آخر، وتنتهي بمكان هو المقبرة، والتي تعني نهاية الحياة، ولكنها في الرواية لم تكن نهاية حياة، ولكن بداية حياة جديدة، بقاء الهادي ونؤارة وابنها، فكان الرواية تقول لنا أن الموت سيكون باعثا للحياة في هذا الوطن، أنه رغم الموت الذي لاحق الوطن خلال العشرية السوداء ستنبت الحياة والأمن والسلام والسكينة التي وجدها الهادي أخيرا.

فالمطار الذي تبدأ به الرواية يمثل عنصرا تقابليا بين المكان / اللامكان، بين الهنا/ هناك، الهنا حيث الوطن، الأهل، الأصدقاء، وهناك حيث مدن الصقيع الباهتة، حيث لا علاقات اجتماعية، حيث الانسان/ الفرد.

فالهادي في المطار في رحلة بحث عن "زمن أقل موتا وأكثر حياة"¹³، فهل وجد الهادي هذه الحياة، وهذا الزمن؟

أما الزمن فيبدو زمنا مستعجلا، قهوة مستعجلة بطعم الملح، ويبدو الزمن في الرواية متراوفا بين الماضي وحاضر السرد عبر مفارقات زمنية بين الاسترجاع والاستباق. بين ذكريات الطفولة، وحياة الهادي في لندن، وهي أحداث تنبني على تقنية التداعي الحر.

يتحدد زمن الأحداث بين أحداث أكتوبر 1988 إلى سنة 2002، وتظهر مؤشرات زمنية كثيرة في الرواية تحيل إلى هذا الزمن، خاصة في العناوين الداخلية، مثلا "أكتوبر.. 1988"¹⁴، "مطار هواري بومدين الدولي نهاية 2002 م"¹⁵، فمن الواضح من هذه المؤشرات التحديد الزمني للأحداث والذي مثلته سنوات التسعينات أو العشرية السوداء، وهي إحالة مهمة لموضوعات الرواية.

4-3 على مستوى الحدث:

تطرح الرواية أسئلة كثيرة، هي لا تجيب عنها بشكل مباشر، فتطرح سؤالا عن بداية أحداث أكتوبر 1988، "كيف بدأت، وكيف انتهت؟ وإلى أين؟ أسئلة كبيرة ملغمة خطيرة ظلت تتردد في صمت"¹⁶ كما تطرح أسئلة عن انضمام عبد النور للجماعات الإرهابية، وهي أسئلة يمكن طرحها حول أي شخص انضم لهذه الجماعات.

فبعد النور الذي كان معروفا بذكائه ومرحه، ورغم اختياره لقسم الفلسفة في الدراسة الجامعية إلا أن رفقاءه كانوا يرونه ممثلا كوميديا ناجحا بفضل موهبته الحقيقية، ولكن ماذا حدث لعبد النور حتى يتحول كل هذا التحول ويلتحق بالجماعات المسلحة. وهو الذي مبهورا بالنقاش والجدال "يتحدث بصوت عال عن أمور الحياة، المجتمع، الجنس، الله.... كان قلبه كبيرا يتسع لحب كل شيء، وكل أحد، دون استثناء، كان يحب الله ويجب الناس الذين يؤمنون به ويذهبون إليه رغم خلافاتهم واختلافاتهم، في المساجد والكنائس في الشوارع، وحتى البارات وكثيرا ما سمعناه يتحدث نابذا كل إقصاء مؤمنا بضرورة الحوار"¹⁷

تطرح الرواية عدة أسئلة حول هذا التحول، وتحاول تقديم تبريرات مختلفة، من خلال الأسئلة التي يطرحها الهادي بعد أن اكتشف أن من بين أعضاء الجماعة المسلحة التي تم القضاء عليها بعد تحصنها في شقة وسط المدينة، وبعد اشتباك مسلح دام ساعات طويلة، اكتشف أن عضو الجماعة المتزوي في الخلف ممسكا بمصحفه وقد اخترقت جسده رصاصات أردته قتيلا، يتساءل ماذا يفعل هذا الشخص في هذا المكان، لا يبدو أنه مندمج في جو الجماعة المسلحة، ثم يكتشف أن هذا الشخص ليس إلا عبد النور، شقيق نؤارة عشيقته، وابن حيه، ويتساءل كيف تركنا عبد النور ينحدر إلى هذه النهاية، وقد لاحظوا عليه في الأيام الأخيرة تغيرا كبيرا، بعد أن أصبح يظهر في المدينة "راكضا محرولا بلحيته الطويلة، كمن به مس من الجن، وعلى وجهه كانت تبدو علامات الحقد والضجر، علامات أبدا لم تناسب وجهه الذي تعودنا عليه مشرقا مرعا"¹⁸

ولعل الأسئلة التي طرحها الهادي حول نهاية عبد النور يمكن طرحها حول نهاية أي شخص غرر به وانضم للجماعات الإسلامية المسلحة، وإن كانت هذه الأسئلة تحاشت الإشارة بشكل مباشر إلى الجانب السياسي في القضية إلا بطريقة خجولة جدا.

"أتساءل الآن كيف تركنا عبد النور تتقاسمه تلك الأوجاع لوحده؟ وهل وجوده في هذا المكان هو مجرد ورطة، أم كان يقصد ذنبه، واعيا بأفعاله؟
أم أن تلك الفتاة هي التي جرت له هذا المصير؟
أم أن الجماعة الإرهابية استغلت طيبته، ملاحمه الملائكية، ظروفه النفسية، وبحته عن فتاته؟
يا إلهي كيف تركنا عبد النور وحيدا في كل هذه العتمة، وهذا الخطورة؟
ثم كيف استطاع أن يفعل هذا بحياته بنا، وبالوطن؟
هل انتحر عبد النور على طريقته؟
وأنا يا أنا كيف استطعت أن أفعل هذا؟
كيف قتلت عبد النور، وحرمته الحياة؟
كيف لطخت يداي بدمائه العزيرة؟"¹⁹

وهذه الأسئلة تدفع القارئ للتساؤل: ماذا يحدث بالضبط لهؤلاء الشباب الذين غزت بهم الجماعات المسلحة وجعلتهم ينظمون إليها، ويقدمون إلى أفعال القتل، ربما "ثمة ممارسات يتم -على أساسها- القيام بما يشبه (غسيل المخ) للفرد العادي، الذي يتحول إلى إرهابي، محو المشاعر، ومحو الأحاسيس، ومحو الشعور بالانتماء"²⁰

فما حدث مع عبد النور طالب الفلسفة وعاشق الحياة ليصبح عضوا في الجماعة الإرهابية، ليس إلا غسيل مخ لشخصيته، لانتهاه، لمشاعره.

د- التصوير الفيزيولوجي لمشاهد العنف:

من التظاهرات السردية لرواية المحنة التصوير الفيزيولوجي لمشاهد العنف والقتل، فقد قدمت الرواية وطننا آيلا للانهيار وواقعا مأسوياً، ومستقبلاً ضبابياً من خلال انهزام قيم الخير وتراجع قيم التكافل الاجتماعي، وتفكك أواصر الاطمئنان الاجتماعي وغلبة المصلحة الفردية على المصلحة الجماعية، مما ولد حالة من الاختلال بين الذات/ والواقع، مما عمق شعور السارد بالانهزامية وانهيار العالم من حوله والإحساس بتشتطي الكينونة وتمزق الذات، واتساع الهوة بين وعيه الممكن والسائد من العلاقات، وشعوره بالغرابة والاعتراب والته والمنى، وسقوطه في هوة الضياع، وهو المصير المأسوي لمختلف شخصيات رواية المحنة، خاصة من خلال التصوير الفيزيولوجي الصادم لمشاهد العنف فقد تعددت "مواسم الرحيل في هذا الوطن، والموت واحد"²¹

تخضر في الرواية مشاهد العنف والقتل، بتقنية الوصف أحيانا مثل حادث الاشتباك أو بتقنية السرد، فتصف الأحداث المأساوية "كأنها فيلم رعب طويل ورديء، وآلة مجنونة فائقة، سوداء، نهمة للدماء- تحصد الأرواح دون توقف، آلة كانت تحصدنا جميعا ولا أحد يدري لماذا؟"²² وأصبح الموت رفيقا يزور البيوت يجالس أهلها، ولا يغادرها حتى في الأحلام، بل في الكوابيس. حتى أن الموت ممثلا في الجثث والهياكل العظمية ترافق الهادي في مغادرته للوطن وتترأى له في شكل هواجس وهلاوس، فهو غير مستقر نفسيا "لا أحد منتبه لصخبها، لرائحتها النتنة وسخريتها اللاذعة سوى"²³

من مشاهد العنف التي وثقتها الرواية حوادث التفجير بالسيارات المفخخة، مثل حادث تفجير سيارة مفخخة بقلب العاصمة والذي يحيلنا إلى تفجير سيارة مفخخة بشوارع عميروش قرب مقر الأمن بالعاصمة، بتاريخ 30 جانفي 1995، "الانفجار الذي راح ضحيته أزيد من 200 شخص، وذلك اثر انفجار سيارتين مفخختين في وقت واحد، بأحد شوارع العاصمة الرئيسية"²⁴، أو تفجير سيارة أمام مدخل مدرسة ابتدائية، راح ضحيته أطفال صغار، "عند بوابة المدرسة التي مرّ بها الموت البارحة، وبعيون تملأها الدموع، الدهشة، الخوف، يسألون عن زملاءهم الذين، انفجروا هكذا فجأة في السماء بأجسامهم الصغيرة، محلّقين بأرواحهم العزيزة، أثر انفجار سيارة مفخخة قرب تلك المدرسة. يا الله من لديه هذه الشجاعة على قتل طفل، وإنجاب طفل في هذا الزمن؟"²⁵

هـ - على مستوى اللغة:

تميزت لغة الرواية بأنها لغة توحى بالفجعة والألم والقلق والتوجع، فقد حاولت الروائية خلق معادل شعوري عنفي، موازي للواقع العنفي، فكانت لغة متوترة، مكثفة بشحنات التعصب والغضب والمجازات المفعمة رهاباً والوقفات الأشبه بصرخات الاحتجاج، في ظل أجواء خافتة ومرعبة، الصراخ في فج عميق ضد كل ما يحدث، والتنديد بالجريمة ومقترفيها، فتكررت عبارات الموت، والقتل، والانتحار، الحزن، الخيبة، الألم، وتكررت المشاهد المأساوية للهادي وهو يواجه لحظاته الصعبة في مواجهة العنف وتأييب الضمير، أو في مواجهة قسوة الغربة.

والملاحظ أن اللغة في روايات المحنة هي لغة توحى بالفجعة، "ملئية بالتأوهات والتأسف على حالات وأوضاع فأت أو حالات وأوضاع مقبلة، واللغة والأساليب اللغوية والتراكيب النحوية بذلك جزء هام في استجلاء الرؤية الفجائية"²⁶

فتكرار الكلمات الدالة على الحالة الفجائية للشخصيات والمصير المأساوي، وكلمات تحمل معاني القتل والألم والمعاناة، من "شأنها أن توصل إلى المتلقي الإحساس بالبشاعة والنفور مما يحدث من عنف، ومن الطبيعي أن تتناسب مفردات اللغة المستخدمة مع طبيعة الموضوع"²⁷،

فتكرار كلمة الموت (تكررت كلمة الموت كثيرا جدا في النص) الوجع، الفجعة، الانتحار، الانهيار، الغربة، فمثلا كلمة الغربة القاسية تكررت بأشكال مختلفة مثلا "آه ما أقسى الغربة"²⁸، و"الغربة واعرة، الغربة صعبة وغدرة..."²⁹، "الغربة بنت الكلب.... بلادك تستر عارك"³⁰، "الغربة ماشي ساهلة"³¹، "لم أعد قادرا على تحمل أهوال الغربة وقسوتها"³²

مع إضافة شواهد على هذا الجو الفجائي، مثلا المثل الذي ظل يردده صالح القوال وبعده زينو، وحفظه من بعده الهادي وردده في كل موضع: "بلاد كيديك البلاد ما يسلك فيها غير طويل العمر..... ومرا كيد المرأ ما يسلك منها غير طويل العمر."

إضافة إلى حضور أغاني الشاب حسني الحزينة لتدعم الجو الحزين الذي ترد فيه، مثل أغنيته "ما ضنيتش تنفارق من بعد عشرتنا..."³³، "مازال كين L'espoire وعلاش نقطعوا لباس"³⁴.

والشاب حسني صورة أخرى للمحنة الجزائرية... فهو "المطرب الشاب الذي تنبأ بموته... لقد كنت الطائر الجميل الذي كان يخلق على مقربة من قبره، في صوتك رنة شجن واضحة وقاسية"³⁵، وقد اغتيل يوم 29 سبتمبر 1994، بعد أن غنى أغنية تنبأ فيها بمقتله.

كما تكررت عبارة «قالوا العرب قالوا» المأخوذة من مسرحية "قالوا العرب قالوا" التي أخرجهما زياني الشريف عياد للمسرح الجزائري، سنة 1983، وهذه العبارة كان يكررها زينو، قبل اغتياله، "إيه لقد مات زينو دون أن يقول لنا يومها قوله المأثور عن كلام العرب.

إيه قالوا لعرب قالوا....

واش قالوا....؟؟؟؟؟

اللي فاقوا راحوا واللي ماتوا ارتاحوا واللي بقاو؟

انجيبوا بهم الصباح....

قالوا لعرب قالوا..."³⁶

فهذه العبارة التي تختصر واقع العرب المأساوي، تكررت في النص تعبيرا عما وصل إليه الحال، في مختلف الدول العربية "ماذا قال العرب؟ سنجتمع... نحتاج... نندد... نقرر؟؟؟ ون....."³⁷

كما تحضر في الحقل الدلالي للشوق والحنين للوطن أغنية ثلجة (الفنانة الجزائرية ثلجة ذات الصوت القوي والمميز) بأغنياتها "غيم العشوة وطالت ليام وتوحشنا"، والاستماع لصوت ثلجة مع سي المحمد يجعل الهادي يعي حتى الموت أن زمن الوطن لم ولن ينتضي وأن لا شيء بإمكانه أن يتجاوزه ولا حتى الزمن³⁸ خاتمة:

رغم أن الكاتبة نعيمة معمري ترى أن الكتابة هي رهان شخصي، وأن أي تقليد لتجربة ناجحة بعيدا عن مراعاة خصوصية الذات الكاتبة والسياق الذي أنتجها هو تعسف لن ينتج إلا الفشل، إلا أن القارئ يلاحظ على النص ظلال الكتابة أحلام مستغاني التي أثرت في كثير من كاتبات الجيل الجديد. وعن كتابة المحنة ترى نعيمة معمري أن الكتابة عن فترة التسعينات وعن فترة العشرية السوداء أمر طبيعي لأن هذه الأحداث بصمت الإنسان الجزائري، والمتشف بشكل خاص بشكل رهيب، وبالتالي لا يمكن تجاوزها، فالكتابة، هي في النهاية كتابة عن الأشياء التي تشكل عائقا وجرحا غائرا، وهي (الكتابة) لا تتطرق من فراغ، لذلك يكتب الروائي عن الأشياء التي تترك بصمتها، ولأن العشرية السوداء تركت بصمتها، كانت رواية "أعشاب القلب ليست سوداء" نموذجا تخيليا عن هذه البصمة. وإن كانت شخصيات الرواية لا تقدم فيها فلسفيا عميقا للمحنة، ولكننا نعيش معها هواجس المرحلة وتبعاتها النفسية، فكان المصير المأساوي للشخصيات الروائية نموذجا لمصير الإنسان الجزائري في تلك الفترة، الذي عانى من القتل أو فقدان العقل أو المنفى.

كما مثل المكان مظهرا من مظاهر المحنة ببداية الرواية بالمطار ورحلة المغادرة إلى لندن التي شكلت مكانا ملائما لهجرة العديد من الجزائريين في تلك الفترة هربا من جنون العنف والإرهاب، في زمن حددته العشرية السوداء.

ولأن اللغة مكون أساسي في بناء النص الروائي، فقد كانت لغة مشحونة بصور الألم والاعتراب والمحنة، لتضفي على النص مظهرا مضاعفا للمأساة الجزائرية.

هوامش:

*الكاتبة نعيمة معمري كاتبة وناشطة ثقافية ومسرحية. خريجة جامعة الجزائر، صدر لها رواية "أعشاب القلب ليست سوداء" سنة 2010، وتعتبر هذه الرواية أول عمل سردي للكاتبة التي أصدرت بعد ذلك مجموعتها القصصية "ما الذي سأفعله بعدك" سنة 2014. كما أصدرت نصوصا مسرحيا "عودة جميلة".

ملخص الرواية: في رواية "أعشاب القلب ليست سوداء" تعود الروائية إلى فترة العشرية السوداء والأحداث المأساوية التي عاشتها الجزائر بعد أحداث أكتوبر 1988، من خلال مسار حياة شخصيات الرواية، شخصية الهادي، السارد الرئيسي

للأحداث، الذي كان شرطيا سابقا، ولكنه لم يستطع مواجهة كل ذلك العنف الممحي، فقرر الاستقالة من الشرطة والهجرة إلى مدينة لندن، التي اتخذها كثير من الجزائريين خلال تلك الفترة منفي اختياريا، ولكنه لم يجد الهدوء ولسلام الذي يبحث عنه، فكانت الذكريات تتبعه، وكانت الأحداث لا تغادر تفكيره، خاصة وهو يتذكر ما حدث مع أصدقاء طفولته الذين سرقتم هذه الحرب العدمية، بداية من صديقه زينو، الفنان المسرحي وصديقه حميدو الصحفي الذين اغتالتهما الجماعات الإرهابية، بالإضافة إلى شخصية نواره، المرأة التي أحبها الهادي، والتي دخلت مرحلة الجنون بعد مقتل شقيقها عبد النور الذي كان عضوا في جماعة إرهابية، نواره التي كانت فنانة مسرحية لم تستطع مواجهة العنف المستشري، فسقطت في براثن الجنون واحتضنتها مصحة عقلية، ولكن طبيبها المعالج استطاع إقذها منها، والزواج بها لاحقا، لتنجب له ابنا عبد النور. لم يستطع الهادي مقاومة فعل الاغتراب والمنفى، خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، ليقرر العودة إلى الجزائر وقد بدأت تسترجع أمنها وسلامها وتغادر الأحداث المأساوية التي دمرتها، وفي عودتها يزور أصدقاءه في المقبرة ليبتقي نواره تزور قبر شقيقها عبد النور، صحبة ابنها الذي منحته اسم عبد النور ليكون نورا لعودة الأمن والسلام للجزائر.

* - نعمية معمري، 2010، أعشاب القلب ليست سوداء، ط1، الجزائر، دار فيسيرا.

¹ - عبد الله شطاح، 2014، مدارات الرعب، فضاء العنف في رواية العشرية السوداء، الجزائر، دار العباسي يوسف

للطباعة والنشر، ص 142.

² - Rachid Mokhtari, 2002, la graphie de l'horreur, essai sur la littérature Algérienne 1990-

, 2000, Alger, ed Chihab.

³ - مخلوف عامر، 1999، أثر الإرهاب في الكتابة الروائية، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني الأعلى للثقافة والفنون، دولة

الكويت، مج 28.

⁴ - عبد الله شطاح: مدارات الرعب، ص 143.

⁵ - بوشوشة بن جمعة، 2005، سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، ط1، تونس، المغاربية للطباعة

والنشر والإشهار، ص 146.

⁶ - الرواية، ص 17.

⁷ - الرواية، ص 185.

⁸ - الرواية، ص 183.

⁹ - الرواية، ص 190.

¹⁰ - الرواية، ص 105.

¹¹ - الرواية، ص 189.

¹² - محمد معتصم، 2003، الرؤية الفجائية، الأدب العربي في نهاية القرن وبداية الألفية الثالثة، ط1، الجزائر، منشورات

الاختلاف، ص 133

¹³ - الرواية، ص 12.

¹⁴ - الرواية، ص 30.

- ¹⁵ -الرواية، ص 216.
- ¹⁶ -الرواية، ص 38.
- ¹⁷ -الرواية، ص 91.
- ¹⁸ -الرواية، ص 92.
- ¹⁹ -الرواية، ص 92.
- ²⁰ - أحمد الرزاق أبو العلا، 2009، ثقافة العنف والإرهاب، قراءة في قصص نهايات القرن، ط1، القاهرة، مصر، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، ص 41.
- ²¹ -الرواية، ص 93.
- ²² -الرواية، ص 13.
- ²³ -الرواية، ص 17.
- ²⁴ -الرواية، ص 85.
- ²⁵ -الرواية، ص 97.
- ²⁶ - محمد معتصم: الرؤية الفجائية، ص 134.
- ²⁷ - سعاد عبد الله العنزي، 2010، صور العنف السياسي في الرواية الجزائرية المعاصرة، دراسة نقدية، ط1، الكويت، دار الفراشة للطباعة والنشر، ص 99.
- ²⁸ -الرواية، ص 178.
- ²⁹ -الرواية، ص 180.
- ³⁰ -الرواية، ص 182.
- ³¹ -الرواية، ص 182.
- ³² -الرواية، ص 186.
- ³³ -الرواية، ص 182.
- ³⁴ -الرواية، ص 191.
- ³⁵ -الرواية، ص 192.
- ³⁶ -الرواية، ص 60.
- ³⁷ -الرواية، ص 60.
- ³⁸ -الرواية، ص 179.

قائمة المراجع:

- 1- أبو العلا أحمد عبد الرزاق، 2009، ثقافة العنف والإرهاب، قراءة في قصص نهايات القرن، ط1، القاهرة، مصر، منشورات المجلس الأعلى للثقافة.

- 2- بوشوشة بن جمعة، 2005، سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، ط1، تونس، المغاربية للطباعة والنشر والإشهار.
- 3- سعاد عبد الله العنزي، 2010، صور العنف السياسي في الرواية الجزائرية المعاصرة، دراسة نقدية، ط1، الكويت، دار الفراشة للطباعة والنشر.
- 4- شطاح عبد الله، 2014، مدارات الرعب، فضاء العنف في رواية العشرية السوداء، الجزائر، دار العباسي يوسف للطباعة والنشر.
- 5- مخلوف عامر، 1999، أثر الإرهاب في الكتابة الروائية، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني الأعلى للثقافة والفنون، دولة الكويت، مج 28.
- 6- معتصم محمد، 2002، الرؤية الفجائية، الأدب العربي في نهاية القرن وبداية الألفية الثالثة، ط1، الجزائر، منشورات الاختلاف.
- 7 - معمري نعمية، 2010، أعشاب القلب ليست سوداء، ط1، الجزائر، دار فيسيرا.

8 Rachid Mokhtari, 2002, la graphie de l'horreur, essai sur la littérature Algérienne 1990- 2000, Alger, ed Chihab.,